صورة الجزائر في «قوت الأرض» لأندريه جيد[1]

الملخص

يتناول هذا المقال ما كتبه الأديب الفرنسي أندريه جيد *(André Gide)* عن الجزائر، والصورة التي رسمها عن هذا البلد بكل أبعادها: الاجتماعية والحضارية والطبيعية وما ميز هذه الصورة من واقعية وخيال وما نتج عنها من فن وإبداع.

الأستاذ: عمار رجال
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار عنابة

أولا: الحياة الاجتماعية:

شكلت الحياة الاجتماعية في الجزائر محورا هاما في كتابات أندريه جيد، فهو لم يهتم بهذا الجانب في بلد آخر مثل ما اهتم به في الجزائر، وحتى مؤلفاته "رحلة إلى الكونغو" و"العودة من تشاد" و"العودة من روسيا" هي تقارير سياسية أكثر منها اجتماعية. لم يخصص للجزائر فصلا أو كتابا يتحدث فيه عن حياة مواطنيها، لكن تسجيلاته وملاحظاته المختلفة الكثيرة التي نقرؤها في مؤلفاته "لو لم تمت الحبة" أو "قوت الأرض" أو "اللاأخلاقي" أو "اليوميات" وغيرها... تعطي صورة واضحة شاملة يمكن أن تشكل قاعدة هامة لعمل جاد خاص بظروف الجزائر الاجتماعية ووثيقة لها قيمتها التاريخية فيما يخص تحليل الوضع الاجتماعي بالجزائر إبان الاحتلال.

Résumé:

Cet article s'intéresse à l'image de l'Algérie dans l'œuvre d'André Gide dans toute ses dimensions: vie sociale, civilisation, nature aussi ce qui a caractérisé cette ouvre: réalisme et imagination et ce qui en a résulté: art et romantisme.

اهتم جيد بكل كبيرة وصغيرة، عن قصد أو عن غير قصد، وبدون تشويه كما يفعل البعض، فهو يرى الشيء ويحسه فيعلنه بصراحة دون تزييف، ولعل كلمة

واحدة يقولها "جيد" تؤدي معاني كثيرة وترمز إلى خلفيات عديدة، ومهمة الباحث أو الناقد تكمن في تفسير ما يسجله.

تحدث عن ملبس الجزائريين وسكنهم وعن فقرهم وبؤسهم وتجارتهم وترحالهم.

1 – بؤس وشقاء:

يطلعنا جيد، منذ البداية، على أن الجزائريين يعيشون أوضاعا متدهورة، تطغى عليها مظاهر الفقر والبؤس وتنبعث منها أنّات أناس قست عليهم الأيام من جهة، واستغلت براءتهم وسذاجتهم قوة استعمارية يجهلون أهدافها؛ وأفضل ما يجسد هذا الواقع هو هذه الكلمة "العريان" التي كثيرا ما يوظفها في كتاباته، فمعانيها متعددة ورموزها متفق عليها، ولعل الصورة التي يرسمها للطفل "بشير" في "اللاأخلاقي" دليل قاطع على هذا الواقع المرير، فهو يرتدي "قندورة" يبدو فيها شبه عار و"برنوسا" باليا تداولت عليه الأيام[2]. وهو الوضع نفسه الذي يعيشه غيره من الجزائريين... وإذا كان أتراب "بشير" في فرنسا وغيرها يذهبون إلى المدارس، فهو محكوم عليه بالذهاب إلى المقهى ليسهر على نظافته وليخدم الوافدين عليه، أما "عاشور" فإنه في سبيل كسب فرنكات قليلة يكسر الحجارة الخاصة بشق الطرقات وفقد معه صديقه "حم الطاهر" عينا نتيجة حادث عمل، و"الصادق" يبيع خبزا في السوق... أما "بوبكر" فلم يجد إلا الزواج وهو في الخامسة عشر من عمره، و"مختار" لا يستطيع الظهور لأنه كان في السجن[3].

إنها أوضاع لا يمكن أن تجسدها إلا صورة خاصة بالأعمال الشاقة لعالم الأطفال والشباب البريء، فكل عنصر فيها يوحي بأن الإنسانية ولّت إلى الأبد.

لم يكن نصيب البنات أحسن من حال البنين، فلم يكن بمعزل عن تقلبات الدهر واستغلال الوحوش، ولم يعثر جيد، نظرا لبشاعة الظروف والمعاملة التي تتعرض لها فئة الفتيات، على كلمة معبرة أكثر من كلمة "قطيع" التي أصبحت مرادفة لمجموعة

من الفتيات سخرن لخدمة القادمين من بعيد، تتمثل وظيفتهن في إشباع رغبات هؤلاء المستعمرين والرحالين الأوروبيين والسهر على راحتهم وترفيههم برقصات مختلفة، مخلة بالشرف أحيانا تمتد إلى طلوع الفجر... ولا يهم إذا كان عمرهن لا يتجاوز السادسة عشر مثل "مريم" وقريبتها "مباركة". ويعتقد جيد أن الإسلام سينظر إلى مريم وقطيعها نظرة رحمة وتسامح[4] دون أن يعطي شرحا.

2 – المقاهي:

تحتل المقاهي حيّزا واسعا في حياة الجزائريين، فهي تأتي بعد المساجد من حيث الإقبال، يؤمها الكبار والصغار وكذلك الأجانب. يفضل الجميع الجلوس فيها والاستراحة سواء أكانت في بسكرة أو الجزائر أو البليدة... فهي المكان الذي يلتقي فيه الناس لتجاذب أطراف الحديث بعد عناء النهار، وتكثر بها الحركة لا سيما في الليل، وكثيرا ما تقام فيها سهرات تميزها موسيقى شرقية ورقصات فتيات خليعات كما هو الحال في مقهى الشارع المقدس ببسكرة[5]؛ ومشروبات هذه المقاهي محلية: "فلا يقدم سوى القهوة وعصير البرتقال والشاي، شاي عربي، عذوبة لاذعة، زنجبيل، شراب يحيي عهد شرق أكثر غلوا وأشد تطرفا، طعمه حريف لا يستطيع المرء أن يشرب الفنجان منه حتى النهاية"[6]، ونظرا لإتقان الجزائريين تحضير الشاي أصبح الشراب المفضل لدى الأجانب الذين تعودوا شرب الخمر[7].

3 – القوافل التجارية:

لم يستسلم الجزائري يوما، رغم ظروفه القاسية، وبقي يقاوم في سبيل تحسين أوضاعه، كان يعي أنه بالعمل يمكن التغلب على الصعوبات؛ لذا لم يدخر جهدا وحمّل نفسه مشاق السفر إلى بلاد بعيدة، في تجارة تميزها السلع والبضائع الشرقية: "قوافل"!"قوافل آتية في السماء"! إنها قوافل سافرت في الصباح، قوافل أرهقتها وعثاء السفر، سكرى من طول التنقل وهي الآن يائسة! قوافل! ليتني أستطيع السفر معك!

كان منها ما يسافر نحو الشرق باحثا عن الصندل واللآلئ والحلويات المصنوعة من العسل في بغداد، والعاج والمطرزات، ومنها ما كان يمضي نحو الجنوب في طلب

العنبر والمسك والتبر وريش النعام... رأيت عودة القوافل وهي مرهقة، فتبرك الجمال في الساحات ثم تفرغ أحمالها، إنها طرود من الخيش الكثيف ولا يعلم ما في داخلها، وجمال أخرى تحمل نساء مختبئات في الهودج"[8].

نقف هنا أمام صورة رائعة لفنان بارع استطاع بعبقريته أن يجسد لنا واقعا بكل تفاصيله وخلفياته، واقعا ظل يمثل مرحلة هامة من تاريخ الجزائر، حيث كانت تعتمد على تجارتها بعدما سلبت منها أراضيها الفلاحية بخيراتها. توحي هذه الصورة كذلك بالاهتمام الكبير الذي كان يوليه "أندريه جيد" لطبيعة حياة سكان الجنوب الجزائري، كان يعلم أين تذهب هذه القوافل والأشياء المتنوعة التي تعود بها حسب حاجيات المواطنين ومتطلبات السوق. إنها صورة تمثل مدى ارتباط الكاتب بمدينة بسكرة وأهلها وغيرها من مدن الجزائر.

4 – الأسواق:

تحتل الأسواق منذ القديم مكانة هامة لدورها الكبير في الترويج للسلع المختلفة، وقد اشتهر بعضها في الشرق كأسواق "بغداد" و"طهران"، بالإضافة إلى أسواق "أزمير" و"القسطنطينية" بتركيا[9]، أما أسواق الجزائر التي تحدث عنها "جيد" فهي ساحات واسعة تعرض فيها البضائع المختلفة. العطور وحدها أنواع، منها ما يشتم ومنها ما يمضغ فيترك صبغا على الأسنان بشكل منفر، ويستمر طعمها في الحلق طويلا بعد بصقها، ومنها ما يحرق وينشر دخانا كثيفا[10]... ولا يذكر سلعا أوروبية لأنها تباع في المحلات.

تتميز هذه الأسواق كذلك بكثرة انتشار الذباب وبخاصة على اللحم ومواد الأكل... ويذكر "جيد" أنه لا حيلة للتجار في مقاومة الذباب سوى إبعاده للحظات بمروحة مصنوعة من أغصان النخيل[11]. ويتجلى من خلال هذه الملاحظة الأخيرة حرص "جيد" الشديد على تسجيل كل ما تقع عليه عينه ويسترعي انتباهه.

ثانيا: حضارة عربية إسلامية :

فرّ "أندريه جيد" من الغرب الذي تسيطر عليه تناقضات رهيبة وتزمت تصعب مقاومته، ليسْعَد في بيئة جديدة، يتميّز أهلها بحياتهم البسيطة البعيدة عن تسلط وتزمت، تنبعث أصالتها من أعماق حضارة عربية إسلامية، وتتجسد هذه الحضارة بشكل واضح في لوحات مختلفة للمساجد ومآذنها كجامع البليدة: "وفي حديقتك المقدسة يتلألأ جامعك الأبيض"[12]، وكان يرى المدن الشرقية تسبح في "لون فجر إسلامي، تميزها مآذن خيالية شاهقة"[13].

كان "أندريه جيد" في رحلاته، يراعي الكثير من مظاهر الحياة، وهو ما يفسر انفعالاته الحقيقية الصادقة في بعض المواقف: "كانت نغمات هذا الدعاء مدهشة إلى درجة أننا بقينا بلا حراك، في حال من النشوى تملأنا غبطة"[14]. كان لا يتمالك، لشدة إعجابه بالمساجد، ودعاء المؤذنين، عن التعبير عما يختلج في نفسه ويبهر سمعه وبصره: "ولكن عبر فجر ما زال بعد نديا، لم تكن تصدر إلا بعض الهمهمات المجهولة التي كانت تضيع في فراغ الفضاء، وفجأة ينطلق مع بزوغ الشمس نشيد من بعض المآذن، النشيد الأول نحو الشمس الصاعدة، نشيد مؤثر وعجيب، كدنا نبكي له. كان الصوت يرسل ذبذبات حادّة، وتفجر دعاء ثم دعاء، وأخذت المساجد تستيقظ مترنمة عند التقائها بأول شعاع من أشعة الشمس... وكان المؤذنون يتجاوبون في الفجر كأنهم قنابر"[15]. فكم كان يتكرر الحديث عن المؤذنين ودعائهم عند الكاتب الذي بهره الشرق. ولم ينس الحديث عن اللباس العربي:

"الولد الرائع الجمال المرتدي صوفا أبيض على الطريقة العربية يدعى "عزيزا" أي المحبوب جدّا..."[16]، وكم تردّد في كتاباته مثل هذه الكلمات: (قندوره – شاشية – برنوس...)، التي تمثل في مجملها اللباس الخاص بالأطفال والرجال، أما النساء فميزهن الوشم على الجبين يضاف إليه لباسهن الطويل الذي يبلغ الأقدام[17]. ويشهد التاريخ

على أن اللباس بهذا الشكل هو من مميزات الحضارة العربية الإسلامية البعيدة كل البعد عن الحضارة الغربية.

اهتم "جيد" بعنصر ثالث ارتبط منذ القديم بالحضارة العربية الإسلامية ويتمثل في "الجمل": كان يعتبر سفينة الصحراء، وقد أدى ولازال يؤدي خدمات جليلة للإنسان وبخاصة في المناطق الصحراوية[18].

تجدر الإشارة في نهاية الأمر إلى أن عناصر هذه الحضارة يجمعها "ديكور" يطغى عليه الطابع الرعوي البعيد عن أرصفة المرافئ والمعامل والعمارات والأبراج[19]، وكان "جيد" ينظر بغرابة كبيرة إلى هذا الديكور: "وأجمل ما رأيت اليوم قطيع نعاج يعاد إلى الحظيرة، وأقدامها الصغار المضغوطة تحدث أصواتا كتهطال المطر، والشمس تغرب في الصحراء والنقع تثيره الأظلاف"[20].

ثالثا: طبيعة الجزائر:

جاء الكاتب إلى الجزائر مريضا وراوده شك رهيب لمرات عديدة بأن حياته في خطر، وشاءت الأقدار أن تكون واحة "بسكرة" هي المكان المناسب ليستعيد فيه الأمل والحياة معا، لقد قدمت له "الديكور" الذي فعل فعلته في نفسه، فتفتحت الدنيا أمام عينيه كما تفتقت كل حواسه، فظن أنه بعث من جديد في عالم جديد[21]، وانطلاقا من هذا الإحساس العميق، جاء وصفه لطبيعة الجزائر متميزا امتزج فيه الخيالي بالواقعي كله.

"بسكرة في المساء: في هذه الشجرة كانت الطيور تشدو، إنها تغني"آه" وظننت أنها استطاعت أن تغني أكثر مما تستطيع الطيور، ولاح لي كأن الشجرة تصرخ، تصرخ بكل أوراقها إذ كانت خفيفة فالطيور لا ترى. كنت أفكر: إنها ستموت فيها"[22].

كان عند وصفه لبعض الحدائق، تولد لنا انفعالاته وأحاسيسه فنا راقيا، بالغ الدقة تمتزج فيه العناصر التصويرية والموسيقية والشاعرية في تركيب بديع: "إن فتنة أزهار

هذه الحدائق كانت تغريني فلا أريد الافتراق عنها... واحة والتالية كانت أروع جمالا وأكثر امتلاء بالزهر والضجيج، أشجار أكبر تنحني على مياه أغزر، كان الظهر فاغتسلنا، ثم حمّ علينا الفراق"[23].

لم يكن "جيد" يفضل منظرا على آخر، فهو إلى جانب وصف الشجرة والطيور التي تسكنها، والحدائق الساكنة الفواحة بالزهور والعطور. يفاجئنا بمنظر تتجدد فيه رؤيته الشاعرية: "رأيت تحت خيط الفجر البازغ جبال (أحمر خادو) تصبح وردية أشبه ما تكون بمادة مضطربة. رأيت الريح تثير من قلب الأفق الرمل مذروا على الواحة. وكانت تبدو كأنها ليست إلا سفينة روعتها العاصفة، كانت مضطربة في مهب الريح، وفي دروب القرية الصغيرة ظمأ كالحمى يتلظى به رجال عراة نحاف"[24].

بهرت الجزائر "أندريه جيد" فتعلق بها أكثر من أي بلد آخر. ولو تساءلنا عما بهره فعلا فيها لما وجدنا جوابا آخر غير "الصحراء"، فلا شيء آخر استطاع أن يستحوذ على شعوره ووجدانه أكثر من الصحراء. لقد فتنته وسحرته، وقبل هذا كانت عاملا أساسيا في استعادة صحته وحالته الطبيعية. كان في السنة الأولى من قدومه إلى الجزائر، يخشى الصحراء ومفاجآتها برياحها ورمالها، لكن سرعان ما أصبح يفضل السير فيها إلى درجة تختبئ فيها الواحات، إلى درجة شعر فيها بأنه وحده في هذا العالم[25]. ولم يتردد في البوح بحبه للصحراء: "وفي اليوم التالي أغدوا ولا أحب إليّ من الصحراء"[26]. قد نجد ما يبرر مثل هذا التصريح، في عالم مليء بالمتناقضات، يوحي ببعض المخاطر. لكنه مع ذلك عالم يوحي بالتأمل، واحتفظ على مر العصور بقيمته التاريخية المتمثلة في حب وتفضيل الأنبياء له كأنسب مكان لأداء رسالتهم: "أيتها الأرض القاحلة، الأرض التي لا خير فيها، ولا عذوبة، أرض العاطفة والورع، الأرض التي أحبها الأنبياء، آه أيتها الصحراء المؤلمة، صحراء المجد، إني أحببتك حباً جماً"[27].

إن تعلق الكاتب بالصحراء مكنه من بلوغ القمة في الوصف، فبقدر ما كانت تلهمه الصحراء، بقدر ما كان هو وفيا بالتغني بها: "كم وددت أن أحبك حبا جما يا صحراء الرمل«آه!» أية حياة تتذكر أيها الغبار؟ متيم بأي حب؟ الغبار يريد أن تمدح وتشكر. يا روحي، ماذا رأيت على الرمل! عظاما نخرة، وأصدافا فارغة... "[28].

يتحدث عن الصحراء بلغة المكتشف، الساعي إلى معرفة المزيد، الراغب في التعمق:

"أريد أن أمضي في الحديث عن الصحراء:

صحراء الحلفاء المليئة بالثعابين: سهل أخضر يتماوج في الريح، صحراء حجارة، جفاف وحجارة مصفحة تلمع، خنافس ترف، وأقصاب تيبس، كل شيء يفرقع في الشمس.

صحراء رملية، رمال متحركة كلجج البحر، كثبان متنقلة باستمرار، أنواع الأهرام ترشد القوافل من بعيد، إلى بعيد، فإذا صعدت قمة إحداها في طرف الأفق شاهدت قمة الأخرى، وحين تهب الريح تقف القافلة ويحتمي الجمالة بظلال نوقهم [29].

كان حريصا على التمتع بأروع منظر تتيحه الصحراء كل صباح يوم جديد، ويتمثل هذا المنظر الرائع في طلوع الشمس وما يبعثه من بهجة وتساؤل في نفس المرء، فكان يترك نوافذ غرفته مفتوحة حتى يستيقظ على كل صوت يسمعه وعليه لا يضيع رؤية المشهد[30].

لم يكتف بكل هذا في تبيان تعلقه بالصحراء، بل جعل منها إطارا مناسبا ومكانا مفضلا لمغامرات بطله في مؤلفه "الحاج EL HADJ"، وكم أحسن توظيفها سواء أتعلق ذلك بالوصف أم بالأبعاد التي أضفاها عليها، والتي كانت على علاقة وطيدة ببطله وأتباعه، أم بتأثيرها في نفسية القارئ الذي قلما يجد ديكورا شبيها بهذا الذي قدمه "أندريه جيد".

وصفوة القول إن صورة الجزائر في أدب "أندريه جيد" قد يطول رسمها ووصفها بالنظر إلى العناصر المختلفة التي تشكلها، فبالإضافة إلى ما ذكر يمكن أن نضيف عناصر أخرى تحدث عنها الكاتب مثل العادات والتقاليد وشخصية الجزائري وموسيقى هذا البلد وتبقى العلامة الكبيرة المميزة لهذه الصورة هي امتزاج الخيالي فيها بالواقعي فهي صورة معبرة في مجملها مغايرة للصور التي رسمها رحالة زاروا الجزائر قبل "أندريه جيد" ومن بعده.

الهوامش:

1) – أندريه جيد كاتب فرنسي من مواليد 1869 بباريس، من أب بروتستانتي وأم كاثوليكية، تميزت سنواته الأولى بنشاطات واهتمامات متنوعة بفضل عناية والده، حيث مكنه من الاطلاع على كتب هامة كالأوديسا والسندباد البحري وموليير وظل مواظبا على المطالعة والقراءات المختلفة،مما جعل منه تلميذا متميزا في مراحله الدراسية، كان يحب الترحال فزار العديد من الدول كإيطاليا وسويسرا وألمانيا وأحب الشرق وعشقه وكتب عنه وزار الجزائر لمرات ، وظل يكتب عنها دون انقطاع (من1893 إلى 1949).

وإذا أردنا اختصار حياة "جيد" فإننا نقول إنه نشر خلال ثمانين سنة مجموعة هائلة من الكتب والأعمال، تحدث فيها بصفة المطلع المتمكن في مجالات عديدة كالفلسفة، والدين، والحضارة، والأدب، من خلال المسرح، والرواية، والنقد، والشعر، والأسطورة.

2) - André Gide, l'immoraliste, romans, récits, et soties, Œuvres lyriques, édition Gallimard, Paris, 1958, P381.

3) – المصدر نفسه، ص: 466.

4) - André Gide, Si le grain ne meurt, Journal 1939-1949, souvenirs, édition Gallimard, 1954, p564.

وانظر كذلك: André Gide, Feuilles de route, journal 1889-1939, édition 1951, p79 Gallimard,

5) - André Gide, Si le grain ne meurt, P564.

6) – أندريه جيد، قوت الأرض والقوت الجديد، إشراف ومراجعة الدكتور شكيب الجابري، منشورات عويدات، بيروت لبنان، ط1، يناير 1965، ص: 140.

7) - André Gide, Si le Grain ne meurt, p391,392

8) –أندريه جيد، قوت الأرض، ص: 142.

9) – أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830 - 1850)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص: 62.

10) – أندريه جيد، قوت الأرض، ص: 140-141.

11) - André Gide, Feuilles de route, P87.

12) – أندريه جيد، قوت الأرض، ص: 50.

13) - André Gide, Le voyage d'Urien, romans, récits, et soties Œuvres lyriques, édition Gallimard, Paris 1958, P21

14) – أندريه جيد، قوت الأرض، ص: 22.

15) – المصدر نفسه، ص: 130.

16) – المصدر نفسه، ص: 130.

17) - André Gide, Feuilles de route, P74. & L'immoraliste, P338

18) – أندريه جيد، قوت الأرض، ص: 142-144.

19) – المصدر نفسه، ص: 122.

20) – المصدر نفسه، ص: 139.

21) – أندريه جيد، قوت الأرض، ص: 24، وانظر، André Gide, L'immoraliste, P391-392

22) – أندريه جيد، قوت الأرض، ص: 137.

23) – المصدر نفسه، ص: 139.

24) – المصدر نفسه، ص: 143.

25) - André Gide, Feuilles de route, P75-76

26) – أندريه جيد، قوت الأرض، ص: 140.

27) – المصدر نفسه، ص: 143.

28) – المصدر نفسه، ص: 145.

29) – المصدر نفسه، ص: 144-145.

30) - André Gide, Feuilles de route, P75.